الأكاديميّة العربيّة الألمانيّة للعلماء الشباب في العلوم والإنسانيّات (AGYA)

صالون أدبيّ مع وداد القاضي

حاورها بلال الأرفه لي

Scottsdale, AZ, USA – 3 December 2023

–

تقارب وداد القاضي في كتاباتها بالعربية والإنجليزيّة جوانب متعدّدة من الحضارة العربيّة الإسلاميّة قلّما طرقها باحث واحد، منها الفكر الإسلاميّ المبكّر، والتفاسير القرآنيّة، واستعمال القرآن في الأدب، وعلم الكلام، والفرق الإسلاميّة، والتاريخ، والمخطوطات والبرديّات المبكّرة، والفكر السياسيّ، والطبقات، والنثر الفنّيّ المبكّر. استطاعت القاضي أن تشكّل مدرسةً فكريّة تخرّج على يدها العشرات من الباحثين الذين يتبوّأون اليوم أبرز المناصب والكراسي البحثيّة في الولايات المتّحدة والعالم. يعرف كلّ من درس على وداد القاضي سقف توقّعاتها العالي من طلاّبها المقترن بتشجيعها المستمرّ وتفانيها في حياتها المهنيّة التي جمعت فيها بين أعلى المعايير العلميّة وأرقى المبادئ الإنسانيّة.

درست وداد القاضي في الجامعة الأميركيّة في بيروت ونالت شهادة الماجستير في اللغة العربيّة وآدابها على يد عملاق حقل الدراسات العربيّة والإسلاميّة إحسان عبّاس. حاولت القاضي في رسالتها للماجستير عن أبي حيّان التوحيديّ (ت 1025/414) أن تعيد بناء مجتمع القرن الرابع الهجريّ الإسلاميّ، بما تضمّنه هذا المجتمع من مفكّرين وفرق دينيّة وطبقات اجتماعيّة، من أصحاب بلاطات وأدباء، حكّام وثوّار، ومن زهد ومجون، تديّن وفلسفة. تابعت وداد القاضي دراساتها العليا في الجامعة الأميركيّة في بيروت على يد إحسان عبّاس وفي جامعة توبنجن في ألمانيا على يد أستاذ الدراسات الإسلاميّة جوزيف فان إس. وفي أطروحتها للدكتوراه اتجّهت نحو الفرق الدينيّة وعلم الكلام مركّزة على فرقة الكيسانيّة. تجمع الأطروحة بين التحليلَين التاريخي والأدبي، وتقارب ثيمات جذّابة كالثورة والتحرّكات السرّيّة والدعويّة والشهادة والانتقام والبطولة والعدالة، والخطب الساحرة.

تركّزت أبحاث وداد القاضي في الجامعة الأميركيّة بعد التخرّج على النثر العربيّ، تحقيقًا ودراسةً؛ والنثر هو القالب التي عبّرت من خلاله الحضارة العربيّة الإسلاميّة عن معظم أفكارها. في هذا المجال، اهتمّت وداد القاضي بمعظم أنواع النثر العربيّ وأشكاله، وتجلّى هذا الجهد في كتابها "مختارات من النثر العربي."

شكّلت الحرب اللبنانيّة، التي اندلعت عام 1975 واستمرّت أكثر من خمسة عشر عامًا، نقطة تحوّل في حياة وداد القاضي. فقد قضت الحرب على جميع مظاهر القانون والنظام، وشُلّت الدولة في ظلّ تناحر الطوائف والجماعات والميليشيات والأحزاب التي قادت البلاد إلى الخراب. هاجرت وداد القاضي عام 1985 إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة وتنقّلت بين عدّدٍ من الجامعات المرموقة لتستقرّ في جامعة شيكاجو. في الولايات المتّحدة ركّزت الباحثة على ما افتقدته في لبنان - على الدولة، تحديدًا الدولة الأمويّة. جاء هذا التركيز على الأمويّين تطوّرًا لاهتمامها برسائل عبد الحميد الكاتب، مؤسّس النثر الفنّيّ العربيّ، ووعيها المتزايد بأنّ هجوم المؤرّخين الغربيّين وشكّهم بموثوقيّة المصادر العربيّة يشكّل تحدّيًا منهجيًّا لا يمكن للباحث العربيّ تجاهله.

واجهت وداد القاضي هذه المقاربة المشكّكة في التراث بتنويعها لمصادر كتابة التاريخ، لا من حيث النوع الأدبيّ فحسب، بل من حيث الطبيعة والمادّة، كاعتمادها على النقوش والنقود والمكاييل والأوزان. وجاء اكتشافها للبرديّات العربيّة واليونانيّة والقبطيّة التي تعود إلى الفترة الأمويّة ليعزّز من هذا التوجّه الذي اعتمدته في دراستها لبدايات الدولة الإسلاميّة. وأخذت القاضي بمقارنة المعلومات المستقاة من هذه المصادر المادّيّة بالمصادر الأدبيّة المشكَّك بها، وذلك بتأنّ شديد، لتثبت صحّة كثير ممّا ذُكر فيها، ولتؤسّس بذلك منهجًا يُحتذى يمهّد لقيام حقل الدراسات العربيّة والإسلاميّة على أسس وقواعد ثابتة.

تُعنى البرديّات الأمويّة بأمور الدولة الإسلاميّة العمليّة، كقيمة الضريبة والجزية ورواتب الجند والبراءات وإحصاء السكّان ومسح الأراضي والرسائل الإداريّة وغيرها ممّا يتعلّق بأمور الدولة، وهي بذلك تحتوي على أسماء المئات ممّن يرتبط بالدولة بشكلٍ أو بآخر ومئات النصوص القصيرة التي تفصّل عددًا هائلاً من العمليّات الاقتصاديّة والإداريّة المرتبطة بالدولة وجهازها البيروقراطيّ. تشكّل هذه البرديّات وثائقَ يُطمأنّ إليها في كتابة تاريخ تلك الفترة، ولكنّ استقاء أيّة معلومات منها يتطلّب عنايةً وجهدًا جبّارَين لم تبخل بهما وداد القاضي. إذ بدأت في تلك الفترة مشروعها الضخم عن الجهاز البيروقراطيّ للدولة الأمويّة (41-132هـ/660-750م)، والذي أثمر عددًا كبيرًا من الدراسات التي تستقرئ آلاف الأسماء والتواريخ والأماكن والمباني والأراضي والأنساب والمرتّبات والنصوص والأوزان والعطايا والعهود والوثائق، تُمكّن من كتابة تاريخ الدولة الأمويّة ووصف جهازها الإداري والبيروقراطي في مدن عدّة.

منهجيًّا، طرحت وداد القاضي مسألتين في غاية الأهمّيّة. أولاهما: ما العلاقة بين المادّة التاريخيّة الواردة في المصادر الأدبيّة -كتب التاريخ خاصّةً- وبين مختلف أنواع الوثائق وخاصّةً البَرديّات؟ وهل تتضمّن أو تستعمل المصادر الأدبيّة الوثائقَ دون الإشارة إلى ذلك؟ تثبت دراسات القاضي تكامل المصادر الأدبيّة ووثائق البرديّات وتجانسها، فتكشف عن جوانبَ مثيرة عبر قراءة إحداهما في ضوء الأخرى. المسألة الثانية التي اهتمّت بها القاضي هي طبيعة الدليل التاريخي. فتتسائل عمّا إذا كان الدارسون الغربيّون محقّين في اعتبارهم أنّ المؤرّخين في فترة ما قبل الحداثة كانوا ينظرون إلى الوثائق كدليل أوثق من الروايات الشفهيّة أو المسندة أو العينيّة. وتشير دراساتها إلى أنّ الرؤية التاريخيّة والأدلّة القائمة عليها تختلف باختلاف الثقافات، وأنّ المؤرّخين المسلمين المبكّرين يقفون موقفًا مخالفًا لما يتوقّعه الدارسون في الغرب، وموقفهم هو الذي يجب أن يحكم توقّعاتنا من النصوص التاريخيّة.

نالت وداد القاضي عشرات الجوائز العلميّة والأوسمة والتكريمات منها جائزة عبد الحميد شومان للباحثين العرب لعام 1982، وجائزة الملك فيصل في مجال الأدب العربي لعام 1994، والدكتوراه الفخريّة من الجامعة الأميركيّة في بيروت عام 2012.

سنبدأ من طفولتك. كنتِ تقصّين عليّ قصصًا رائعة عن جدّتك، وما زلتُ إلى اليوم أذكرها وأشاركها مع غيري في مواقف معيّنة لما تحمله من عبرة لطيفة أو نصيحة. أخبريني أكثر عن قصص الطفولة، ما المواقف أو الأحداث التي أثّرت فيك في طفولتك وما زالت محفورةً في ذاكرتك إلى الآن؟

كنت أحبّ الكتابة كثيرًا منذ صغري، أكتب وأكتب وأكتب... وقد لاحظت أمّي تميّزي، فخصّتني باهتمام وحماية فائقين. وزاد ذلك بعد إصابتي بمرض السلّ وأنا في السابعة عشرة من العمر، إذ قال الطبيب حينها لأمّي: "لا يجدر بوداد أن تحزن، أبقيها بعيدةً عن الأحزان." [تضحك] وهل يمكن لإنسانٍ أن لا يحزن؟! لكنّ أمّي، ذلك الملاك الرحيم، كانت تخاف عليّ من المناوشات البسيطة، فإذا علا صوت شجار في البيت أسرعت إلى المتشاجرين قائلة: "أخفضوا أصواتكم كي لا تسمع وداد فتحزن." وكان لهذه المعاملة الخاصّة ضريبة، إذ كانت تثير أحيانًا غيرة أخوتي.

وأذكر من أيّام الطفولة أيضًا شغفي بالمطالعة، كنت أحبّ قصص المكتبة الخضراء الصادرة عن دار المعارف، وأحبّ القصص القصيرة المترجمة إلى العربيّة الصادرة في مصر. كان خالي[1] يأتيني بهذه القصص كلّها، فهو الوحيد في عائلتي المعنيّ بالشأن العلميّ. علّمنا في البداية أركان الإسلام من كتاب "أنا مسلم". وكانت أسعد أوقاته تلك التي نذهب فيها في رحلة مع العائلة إلى بساتين عيناب، قريبًا من مكان اصطيافنا.

هل تتمنّين لو أنّك تعلّمتِ الموسيقى في صغرك؟ فأنا أعرف أنّك تتحلّين بأذنٍ موسيقيّة وقد حاولتِ تعلُّم العزف على البيانو بعدما كبرتِ.

هذا صحيح، أحبّ الموسيقى والرقص، ولديّ أذنٌ موسيقيّة لكنّني أفتقد التقنيّة أو اللغة الموسيقيّة، ولذلك أعزف بالاعتماد على السماع غالبًا.

[1] خالها الشيخ محمّد عبد الرحمن مغربل (ت 2011)، الرئيس الأسبق للمحاكم الشرعيّة السنّيّة في لبنان.

ألم تتأثّري دينيًّا بخالك؟

لا، لم تكن دراسة الدين جذّابةً بالنسبة لي. تأثّرتُ أكثر بلغته وفصاحته، لا سيّما أنّ والدي كان أخرس وقد ولّد ذلك في داخلي ميلًا وتقديرًا كبيرين للصوت عامّة، واللغة بشكلٍ خاصّ.

لماذا درستِ العربيّة؟

أظنّ أنّ السبب وراء شغفي بدراسة التراث العربيّ وأدبه وتاريخه هو القائد عبد الناصر، فقد أثّرت شخصيّته في جيلنا كثيرًا، شعرنا بفضله بأنّ لنا قيمة، وبأنّ عندنا تاريخًا عريقًا.

هل أُحبطتِ لاحقًا بسبب فشل مشروعه؟

لا يمكنني قول ذلك، خاصّةً أنّني أؤمن باللغة وقدرتها على التوحيد، فاللغة هي التي تجعل أمّةً ما مختلفةً عن الأمم الأخرى. خُذ مثلًا فيلمًا سينمائيًّا صدر بأكثر من لغة، النصّ نفسه يظهر بوجه آخر كليًّا مع تغيير اللغة. ولأنّني أؤمن باللغة وقدرتها على التوحيد، أجدني مستاءةً جدًّا من واقع اللغة العربيّة اليوم، فأنا ألحظ تدهورًا في إمكانيّاتها بسبب قصور في طرق تعليمها، وهذه جريمة. إنّ المفردات العربيّة المستعملة اليوم لا تسعفني في وصف غرفةٍ واحدة بما فيها.

ماذا قدّمت لك ألمانيا؟ وماذا قدّمت لك أميركا؟

ألمانيا كانت مرحلةً ثوريّة بالنسبة لي، هي أوّل بلد أسافر إليه، والفضل في ذلك يعود إلى الدكتور محمود الغول في دائرة اللغة العربيّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت، كان يقدّر تميّزي ويصرّ على أن أستكمل دراستي في الخارج، مع العلم بوجود نقص في عدد الفرص الموجودة في الخارج وطبيعتها. أميركا فتحت لي أبوابًا جديدة، وغيّرت جذريًّا في الطريقة التي أنظر فيها إلى المادّة الأدبيّة. تعلّمتُ أنّ ما نقرؤه هو صورة عن التاريخ وليس التاريخ نفسه، فهناك دائمًا حاجز يحول بيننا وبين رؤيته عيانًا. ولذلك علينا أن نطرح الأسئلة دائمًا، ونحاول الوصول من خلال الصورة إلى الحقيقة التاريخيّة، وهذا واضحٌ في عملي على البرديّات والحضارة المادّيّة. أنا مهتمّة بسؤال الموثوقيّة، رغم أنّ معظم المؤرّخين لا يعتنون بمفهوم الحقيقة التاريخيّة أصلًا، ويتركّز عملهم على إضافة صورة جديدة للصور التي وصلتنا.

هل شعرتِ، كونك امرأة، بأنّ عليك النضال للحصول على حقوقك في الأكاديميا في بيروت أو في أميركا؟ أم أنّك عوملتِ بشكلٍ عادل؟

لم يشغلني هذا الموضوع أبدًا، كنت أعرف أنّني إذا تميّزتُ بعلمي وعملي فسأحصل على التقدير الذي أريد. ولذلك لا تجدني ناشطةً اجتماعيًّا، وعادةً ما أُلام على ذلك، لكنّ العمل الأكاديميّ والنشاط الاجتماعيّ مهارتان مختلفتان، وأنا لا أملك مهارة الكلام عن المرأة. أفرح طبعًا عند رؤية امرأة شابّة تتحدّث في موضوع يحمل أملًا للمستقبل، وأفرح أكثر ممّا لو جاء هذا الكلام على لسان أخيها مثلًا، والسبب ببساطة أنّ المجتمع قد منح الصبيّ قوّة عظيمة منذ اللحظة التي يولد فيها.

علاقتك بتلاميذك ليست علاقة تقليديّة بين أستاذة وطلّابها، فأنتِ مرشد حقيقيّ بالنسبة لهم، لا في الأمور الأكاديميّة فحسب بل في أمور الحياة كلّها. وهذا الأمر غير شائع في الأكاديميا الأميركيّة، أنتِ حالة خاصّة، مدرسة خاصّة، تصرفين الكثير من وقتك بشكل استثنائيّ على الطلّاب.

طلّابي هم أفضل شيءٍ حدث لي في حياتي، عندما أقدّم لهم شيئًا فأنا أقدّم لنفسي شيئًا. هم الجيل الثاني، وأنا أعدّ نفسي محظوظة أنّني أفيدهم وأستفيد منهم. التعليم مهمّة عميقة ومعقّدة، وأنا آخذ عملي على محمل الجدّيّة، وهذا نابعٌ من داخلي. كما أنّني لا أميّز بين طلّابي أبدًا، الذكور منهم والإناث، المسلمين وغير المسلمين، كلّهم في نظري "ملائكة"، ويُسعدني تعليمهم وتمكينهم.

يكثر بين أبناء جيلك المؤوّلون للتاريخ (revisionists)، ومنهم الباحثون العرب، فهل تجدين ذلك التيّار ناجعًا في أميركا؟ أم أنّها صيحة وستمضي؟

أجدها أحيانًا مضيعة للوقت، ويتمّ تقديمها على أنّها دليل على براعة الباحث. كنتُ أحاضر يومًا في جامعة جورج تاون وقالت لي إحدى الموجودات: أنت ربّما تسلكين الطريق السهلة ولا تتعمّقين في دراسة النصّ من أجل الوصول إلى الصورة الحقيقيّة. فقلت لها: أنا لا أريد الصورة الحقيقيّة، إنّ كثرة طرح الأسئلة لا يجعل منّا دائمًا باحثين أفضل.

أعرف أنّك لم تسترسلي في استعمال النظريّات، فهل تجدينها ضروريّة؟ هل تضيف شيئًا إلى الحقل؟ أم أنّ المقاربة الفيلولوجيّة كافية بالنسبة لك؟

الفيلولوجيا عمليّة، ولكنّ الباحث يحتاج إلى أن يخلص إلى نتيجةٍ ما بعد إجراء العمليّة. النظريّات تكون مفيدة أحيانًا ، وغير مفيدة أحيانًا أخرى. ومن الجيّد أنّ جيل الدارسين اليوم واعٍ بهذه النظريّات، أمّا أنا فكنت أستعملها بشكل محدود لأنّني تعرّفت إليها لاحقًا، وهي تحتاج إلى مِران.

ما المدن التي تسكنك طيلة الوقت؟ تذكرينها دائمًا وتحملينها معك وتشتاقين إليها؟

لندن طبعًا، مدينة الموسيقى والمسرح، هي في طليعة المدن التي تسكنني. تسحرني في تحوّلها من مدينة قديمة إلى هذا الحدّ إلى مدينة حديثة إلى هذا الحدّ. نيويورك أيضًا أثّرت فيّ، هي مدينة قاسية، تربّي الإنسان، لكنّها تستحقّ التضحية.

تعجبني مقالتك عن المرجعيّة بين الشرق والغرب وأدرّسها عادةً لطلّابي، تعجبني لأنّها تتحدّث عن الوقائع كما هي: شرق لا يعترف بالغرب مرجعيّةً أكاديميّة، وغرب لا يعترف بالشرق قيمةً أكاديميّة، ويحصر قدرتهم في تحقيق التراث فحسب، وينفي عنهم القدرة على التفكير النقديّ. هل وجدتِ في نهاية مسارك الأكاديميّ تغيُّرًا في هذه العلاقة؟ هل لاحظتِ حضورًا لباحثين متمكّنين يكتبون بالعربيّة؟ ماذا عن المؤتمرات والمجلّات المحكّمة التي تصدر بالعربيّة؟

هناك تغيّرات كثيرة تحدث في حقلنا، والاستمرار فيها أمرٌ مطلوب. ولا أظنّ أنّ الوقت قد فات لتغيير الواقع، علينا فقط أن نستمرّ في المحاولة.

يتميّز جيلك، أو جزء من جيلك على الأقلّ، بالاعتناء بالمنهجيّة. ما أهمّيّة ذلك في رأيك؟

إنّ بنية الورقة البحثيّة أو تصميمها يوازي أهمّيّة المضمون في نظري. وأعترف أنّني كنت مهووسةً بذلك، وأذكر حين شرعتُ في كتابة أطروحتي، نصبتُ خيمةً على شرفة بيتنا في المصيف ومكثتُ أعمل داخلها قرابة 3 أشهر حتّى أنجزت التصميم، فغدا من بعدها توسيع الأطروحة أمرًا سهلًا عليّ. والدقّة بالنسبة لي مهمّةٌ جدًّا، فالباحث يخذل قارئه إن لم يكن دقيقًا.

ألحظ شخصيًّا أنّ الفاعليّة قد طغت على الأستاذيّة في الآونة الأخيرة، وذلك في الأكاديميا العربيّة والغربيّة على السواء. يُطلب من الأستاذ الجامعيّ أن يصل إلى جمهورٍ أوسع، أن ينشر في جريدة أو يظهر في مقابلة تلفزيونيّة، بتعبير آخر، أن يتحوّل إلى مفكّرٍ أو

مثقّف عامّ، يدعم هذه القضيّة أو تلك. لأيّ درجة ترين أنّ على الأكاديميّ أن يفعل ما يفعله الصحفيّ، أو أن يحمي نفسه من هذه الاصطفافات؟

الاصطفافات تكون مشروعة عندما يوقن الشخص أنّ ما يتحدّث عنه صحيح ومحقّ، وعندما يجتهد في البحث عن الحقيقة ولا يردّد أصوات الآخرين. ولكن من جهة أخرى، تستنزف هذه الاصطفافات وقت الباحث، وكان أولى أن يصرفه على البحث العلميّ.

قلتِ لي مؤخّرًا إنّك تهتمّين الآن بالسينما وتتابعين الأفلام. إذا عُرض عليك الذهاب إلى جزيرة وإمضاء شهر هناك، ما الأفلام الثلاثة والروايات الثلاثة التي تأخذينها معك؟

"Casablanca" فيلم رائع، وبنية المشاهد فيه سلسة جدًّا، وسلاستها تلك جذّابة جدًّا. يدور الفيلم حول النضال من أجل الحقيقة، ويُظهر صعوبة استمرار الحبّ في ظلّ كثرة المشاكل، وإن كان الفيلم يحاول تذليلها وحلّها بشفافيّة وصدق. والفيلم الثاني " Judgment at Nuremberg"، تدور أحداثه بعد الحرب العالميّة الثانية، حين أحضر الأميركيّون ثلاثة قضاة لاستجواب الذين قاتلوا مع هتلر. يثير الفيلم أسئلة صعبة عن الولاء وتناقضه مع إحقاق العدل أحيانًا، وعن خضوع الجنديّ للأوامر ورغبته في الثورة التي تعرّض حياته للخطر. وإنّ النضج الذي أظهرته كلّ شخصيّة في الفيلم هو ممتع حقًّا للمشاهد، لا سيّما شخصيّة القاضي سبنسر ترايسي (Spencer Tracy). والفيلم الثالث هو "The Lives of Others" وهو فيلم ألمانيّ مظلمٌ جدًّا، يحكي عن شخص يستمع إلى حياة الآخرين ويتعاطف مع قصّة أحدهم ويحاول إنقاذه. وفيلم شيكاغو "Chicago" أيضًا عظيم، فمن المبهر إصدار هذه الموسيقى البديعة بهذه السرعة.

أمّا عن الروايات فأحبّ كتابات John le Carré وعبد الرزّاق جرنه، وربّما أختار ثلاث روايات لجرنه.

على ماذا تندمين في الحياة؟

أندم أنّني لم أتعلّم اليونانيّة واللاتينيّة، ولكنّ الفرص التي أُتيحت لنا في لبنان كانت محدودةً جدًّا.

–